الفصل الثالث

وقفات مفصلية لتشخيص الأزمة

obeikandl.com

obeikandl.com

وقفات مفصلية لتشخيص الأزمة

إن وجود شيء ما في نفوس الناس حول الوجود ومآلاته لا يعني الإقرار بتلك الصورة المضخمة عن الظاهرة برمتها، فقد يكابر من يستطيع تمرير شيء ما إلى الآخرين، لكن يستحيل أن يكابر الإنسان مع نفسه، والواقع يثبت وجود (قلق) قد يصل عند بعض الغافلين إلى حد الأزمة فعلًا، وهو ما نشير إليه بين الفينة والأخرى في هذا الكتاب، وسنصفه هنا بـ(الأزمة الظاهرية) مع العلم أنه سبق الإيضاح بأنها ظاهرة طبيعية لا تشكل خطرًا بالحجم المتضخم عند بعض الغيارى المشفقين، ولكي نصل إلى جواب كافٍ حول وجودها من عدمها، فلا بد من فهمها من خلال التعرف إلى بيئتها ومحضنها الطبيعي الذي نشأت منه، حتى نشخصها تشخيصًا سليمًا، علمًا أن السكينة والطمأنينة توجد حيث يوجد الإيمان والاستئناس بالوحي، وتظهر علامات الأزمة المعرفية كلما ابتعد الإنسان عن خالقه، وحين يغشاه الخوف يبحث عمن يجد فيه رجاء تحقيق الأمن، ولا يجتمع الخوف كل الخوف، والرجاء كل الرجاء، إلا بحق القادر على إيجاد كل خوف ومنعه، والقادر على إعطاء كل شيء، هو القادر الذي لا يعجزه شيء مطلقًا، مالك هذا الوجود المعروف لبني الإنسان وما وراءه ملكًا لا يضاهيه فيه أحد، ولا يشابهه أحد، ولا يقدر عليه أحد، ونحن مع كل أزماتنا نقبع في زاوية نائية من هذا الملك الفسيح لا تكاد تُرَى من صغر حجمها ووزنها زمانًا ومكانًا، فنحن ابتداءً وانتهاءً مملوكون وعبيد وتابعون له، وقد أتى علينا حينٌ من الدهر في هذا الوجود لم نكن شيئًا مذكورًا.

علينا أن نتذكر قاعدة البقاء والفناء، فالباقي معبود، والفاني عبد لمن أفناه، وما كان في هذا الوجود ضعيفًا وفانيًا، فهو قطعًا يخضع للموجد القوي الباقي، ولو تأملت الأمر جيدًا لوجدت أنك تزداد أمنًا وطمأنينة كلما اقتربت من هذا الذي تخافه وتخشاه، أي كلما اقتربت من الله مؤمنًا مستسلمًا له، انغمست في نعيم الطمأنينة والسعادة، وكلما أوهمت نفسك بالهروب منه طلبًا للسلامة بعيدًا عنه، ازدادت وحشتك من مآلات الوجود المخيفة، فما تلبث أن تكرّ راجعًا متعطشًا لدفء ملاذه؛ لأنه لا خيار ولا مفر لك، فأنت مملوك ضعيف جدًّا، محاط من كل جانب بمملكة القوي، بل القوي جدًّا، الذي لا مفر منه إلا إليه، فأين المفر؟!

ومن عجائب تيه (الملحدين) أنهم يزعمون قدرتهم على التحول عن الله بصدودهم عنه وإنكارهم لوجوده، ويتخيلون أنهم ينتقلون إلى غير وجوده وكونه، بينما هم في حقيقة الأمر عبيد له رغمًا عن أنوفهم، فهم لا يستطيعون الخلاص من ملك الله وهيمنته على الوجود، إنهم في ملك الله وحده، إنهم يأكلون الطعام الذي أوجده الله لهم، وهم يعلمون يقينًا أنهم لم يوجدوه، ويشربون الماء الذي أوجده لهم، وهم يعلمون أنهم لم ينزلوه من السماء، ويتنفسون الهواء الذي خلقه الله لهم، ويتمتعون بحياة رسم الله أولها وآخرها رغمًا عنهم، وهكذا يوهمون أنفسهم أنهم يتحولون عن الله وملكه وسلطانه، ولو سلط الله عليهم أصغر كائن حي عرفه الإنسان (الفيروس مثلًا) لما استطاعوا أن يحموا أنفسهم منه، ها هو فيروس نقص المناعة (HIV) يحصد الملايين من الناس بلا رادع ولا مانع، وحتى فيروس الإنفلونزا لم يجدوا له علاجًا، لا طاقة للمرء بأصغر جند الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾ [المدثر: ٣١] ومهما كابر الملحدون، ونسبوا أمر هذا الوجود إلى الطبيعة أو المصادفة -مثلًا- فهم يدركون من داخلهم أن هذه المخارج التي يهربون إليها في الجدل ليست مقنعة، ولا تصمد صمود أدلة وجود الخالق ﷻ، وهو ما استقر عليه أصحاب الفطرة السليمة عبر القرون والأجيال، يقول عالم الفلك الشهير (ألفرد هاللي)[1] في مقال نشره عام ١٩٨١م: «إن احتمال المصادفة في ظهور الوجود بتوجيه رشيد يقارن بفرصة قيام سيل يمر بساحة خردة لتتجمع طائرة بوينج ٧٤٧ صالحة للطيران»[2].

وسواء أكانت الأزمة وهمية أم حقيقية لا فرق بين الحالين، فالنتيجة في نهاية المطاف واحدة، الحقيقة الكبرى تفرض نفسها وأمر الوجود أكبر من خلق الناس أجمعين، ومهما بلغ الغرور بالإنسان فلن يتجاوز حجمه الطبيعي، وقدراته المحدودة وضعفه الشديد أمام القوى القاهرة حوله، فكيف بقوة من أوجدها، وهو القوي العزيز، إنه لا عبرة

(١) فريد هاللي Fred Hoyle (١٩١٥- ٢٠٠١م) الموافق (١٣٣٣- ١٤٢٢هـ) عالم رياضيات وفلكي إنجليزي مشهور من أشد المتحمسين لنظرية الانفجار العظيم لنشوء الكون وسمي المذنب المشهور هاللي باسمه وهو من أشد المعارضين لفرضية النشوء التلقائي للحياة على الأرض.

(٢) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد دودح، المستشار العلمي للموسوعة.

obeikandl.com

بالأوهام والخيالات والوساوس، حتى إن كنت الإنسان المكرم على الخلق تكرمًا من الخالق عليك، فأنت لا تملك من أمرك شيئًا، ولا تحاسب إلا في حدود التكليف المقيد بالأهلية الشرعية بعد تجاوز مرحلة الطفولة والمنتهى بفقد تلك الأهلية، فلا تكليف قبل الوجود ولا مع فقدان العقل ولا بعد الموت، إنما الخطاب موجه للأحياء الملكفين فقط: ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس: ٧٠].

وعلى هذا الأساس سيكون الحساب والجزاء، وما سوى ذلك فأنت غير مكلف ولا محاسب على شيء، وما كان الله ليكلفك أو يحملك ما لا طاقة لك به، وهو الذي بك لطيف ورحيم، وكيف يكلفك بما لا تحيط علمًا بالمعلوم منه فضلًا على ما لا تعلمه من عالم الموجودات الذي لا قدرة لك على استيعابه، ولأنك أنت الضعيف بل ربما تكون الأضعف غالبًا في حلقات الوجود كلها، تذكر أن هناك من تصدوا في الماضي والحاضر لهذا التحدي المعرفي ظنًّا أنهم سيصلون إلى شيء، فأدركهم الموت الذي لا قبل لهم به قبل أن يصلوا إلى غير تلك النتيجة الحتمية، أن لا قدرة للمخلوق على معرفة أسرار الوجود دون إخبار الخالق له، وليس أمام المخلوق من خيار إلا أن يكون عبدًا للخالق.

فخير لك في حياتك وبعد مماتك أن تتقبلها مستسلمًا دون عناء؛ لأن مردّك إليها، وأي خلل في هذا التصور سيؤدي إلى خلخلة الإيمان واضطراب النفوس ونشوء القلق والخوف وفقدان التوازن الوجودي، بل وتمهيد الطريق نحو حبائل الشك والكفر والإلحاد وانعدام السعادة، التي غالبًا ما تأتي نتيجة طبيعية من هذا النقص الهائل من جوهر العبودية المطلقة لله الواحد القهار في ميدان الفكر الإيماني والتصورالصحيح لما يجب الإيمان به، وكل ذلك ناتج بالدرجة الأولى من الانفصام بين النظرية الدينية والتطبيق، النفور من هذا التناقض الظاهري بين الشرع والشارع، بين النص والأخلاق، بين الشعار والممارسة، إنها أزمة المتدين، وليست أزمة الدين.

*****

الوقفة الأولى: هل الأزمة أزلية أم حادثة؟

ستشعر بارتياح خاص، عندما تعلم أن هذه الأزمة ليست طارئة، بل هي قديمة قدم الإنسان نفسه، وهذه الراحة سببها أنك وجدت نفسك في هذا اليوم ضمن حلقات سلسلة متواصلة من التساؤلات الحميدة عبر الأجيال المتعاقبة، تكاد تكون نفسها وليس فيها مستجدات خارقة، ولا مستحدثات مقلقة، وتكاد جميع أسئلة الوجود تكون مكررة، بينما إجاباتها متفاوتة، وترد فطريًّا على الجميع قديمًا وحديثًا، وسترد في المستقبل أيضًا ومن دون مقدمات، ومهما شرّق وغرّب الفلاسفة والمتكلمون وأهل المنطق في استماتتهم في إيجاد أجوبة عليها بعيدًا عن نور الوحي فلن يصلوا إلى شيء تجتمع عليه كلمتهم، أو يتلقاه منهم الناس باقتناع، ولن يكون في مقدور البشر مجتمعين الوصول إلى ذلك إلا من خلال قبولهم بالوحي الإلهي وتصديقهم لخبر السماء القادم من الخالق لهذا الوجود العالم بأحوال الكون الذي حير الناس أمره ومعجزاته.

أي ظلم للنفس أكبر من أن يحرم الإنسان نفسه الاستفادة من الوحي، وهو المصدر المعرفي الصافي والوحيد، وقد يتعدى عناده هذا ليحرم غيره بتعمده وضع العراقيل بين الوحي وبين عقول الناس، وذلك بتجريده من مضامينه العظيمة، وتقديمه للناس منقوصًا مطففًا مشوهًا عقيمًا منفرًا موحشًا في عالم الواقع، فلا يظهر للإنسان جمال الدين وكماله إلا في عالم المثالية التي يسمع عنها، ويستحيل وجودها في الدنيا، تقرأ نصوصًا رائعة، وترى واقعًا مؤلمًا محبطًا، فتقع الفتنة والزهد بالدين، ظنًّا منك بأن من لم يكن ملائكيًّا في تطبيق الدين فإنه هالك، وما ذلك إلا قصور قاتل في فهم التكليف البشري وسوء ظن برحمة الخالق ﷻ القائل: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦].

ولا يقع اللوم على ضحايا هذه التصورات الخاطئة وحدهم إذا ما نظرنا إليها بتجرد وموضوعية؛ لأن (دينًا) بهذا الجفاء والجفاف والخواء التطبيقي والخالي من العدالة وحفظ الحقوق والكرامة، من الطبيعي أن يقود إلى نفور الناس منه ومن أصوله وفروعه، يتولى كبر هذا التضليل المتعمد بعض رجال الدين من كل ملة ممن ألصقوا به

تشريعًا منكرًا ومنفرًا، وصوروا الرب صورًا فرضت على كل عاقل إنكارها، بل وحتى الكفر والإلحاد فيها؛ لاصطدامها بالفطرة السليمة عندهم.

*****

الوقفة الثانية: الشجاعة في مواجهة القسوة

يجب الإشادة بشجاعة الفرد المؤمن المجاهد لحماية إيمانه أمام قسوة المجتمع الغافل أو المتغافل عنه، عندما أذكرك بالطمأنينة الإيمانية -أخي القارئ الكريم- وعدم تعارضها مع كل تساؤل يرد عليك، فأنا بذلك لا أتكرم عليك بشيء جديد من عندي، ولا أمنحك أنواط الشجاعة الدنيوية، بل أكشف لك حقيقة الواقع الذي أنت تعيشه بفضل الله وحده، ولكنك لم تتذوقه على الوجه المطلوب؛ لأنك متماسك الإيمان على الرغم من قسوة من حولك في حقك، لقد تخلصت بكل شجاعة من كابوس قسوة المجتمع، وأدركت أنك دائمًا تحت حكم الرحمن الرحيم، وجودًا وحياةً وموتًا ونشورًا، وأن دينك دين الرحمة ونبيك نبي الرحمة، وأن الراحمين منا يرحمهم الرحمن، ولو فكرنا قليلًا لاستدركنا على أنفسنا هذا التصرف القاسي من بعضنا في حق عباد الله المؤمنين المتعطشين إلى بيان الحق، إذ كيف نخطئهم في أمور بدهية وفطرية، وقد سبقهم من أولي العزم من الرسل من سألوا ربهم مباشرة أسئلة كبرى من أجل الوصول إلى الطمأنينة المنشودة لكل إنسان، حتى وإن كان نبيًّا رسولًا، فهذا خليل الله أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام يسأل ربه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾[البقرة: ٢٦٠] وهذا كليم الله موسى عليه السلام لم يتوقف تطلعه المعرفي، حيث كلمه ربه، بل طلب فوق ذلك مطلبًا آخر: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] هكذا سألوا الله، فلم يقدح ذلك في صدق إيمانهم واصطفائهم على الخلق وكونهم من أولي العزم من الرسل عليهم السلام جميعًا.

إن ترسيخ الإيمان من الأهمية بدرجة تفرض تناوله من جوانب عدة وعرضه من خلال أكثر من سياق ضروري جدًّا، ويجب طرحه من أكثر من زاوية حتى لو ظهر

للقارئ الكريم، وكأنه أمام تكرار للفكرة نفسها، بينما الأمر ضرورة ملحة جدًّا تجعلنا نتمحور دائمًا حول (العلة الأولى) للوجود؛ لأنها السبب الأصلي لكل ما يدور في الأذهان، حيث مردنا إلى أمر الله الواحد الأحد، والأمر يتطلب تكرار ضغطه و(كبسه) فكريًّا من جميع مسامّ ومنافذ العقل الممكنة، وترديده لضرورة تطبيعه في النفوس والعقول طمعًا في تشرّبه وتفهّمه والإلف به، ولا يعد ذلك تكرارًا، فالقرآن لم ينزل على الرسول جملة واحدة، بل نزل متدرجًا، وقصصه وردت مرات عدة في أكثر من سورة، وكان تفسير ذلك هو لتبيت فؤاده ﷺ: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ﴾ [الفرقان: ٣٢] حال المتلقي هنا كحال متعاطي الدواء الواحد مكررًا، ولا يكون دواء شافيًا إلا بذلك.

لقد كان من إعجاز كتاب الله أن يتردد ذكر قصص القرآن العظيم في مواضع عدة؛ ليثبت الله بها فؤاد النبي ﷺ قبلنا، يذكّر الله نبيه بقصص الأنبياء آدم ونوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وعيسى وغيرهم مرات عدة في سياقات مختلفة، والقصة تكاد تكون واحدة في أصلها والحدث واحد، لكن لا يمكن أن تشعر بتكرارها؛ لأنها ضرورية لإحاطة هذه القصص بالعقل من كل جانب، حتى يتشرب أكبر قدر منها، كما يتشرب الفخار الماء الذي يكرر عليه كبسه من كل جانب، فمثل هذه القضايا الإيمانية الكبرى في الوجود لا يكفي أن تلصق على القشرة الخارجية من (العقل) بذكرها في مناسبة أو مناسبتين لتطير منه لأدنى سبب، بل لا بد من تشرّبها من جميع مسام العقل ومنافذه وتكرارها بالتذكير الدائم والمتواصل دون ملل ولا كلل؛ حتى تترسخ فيه، وتصبح جزءًا من كينونة الإنسان الفطرية التي يصعب انفكاكها عنه، ويكون من الصعوبة أيضًا تعرضها للتآكل الفكري بسبب النسيان وعدم تكرار جرعات التذكير والخشية: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾[الأعلى: ١٠] ولولا أهمية سورة الفاتحة في ترسيخ الإيمان والعقيدة لما أوجب الله على عباده تكرارها وجعل الحد الأدنى أن نكررها سبع عشرة مرة في اليوم، وإذا كانت الذكرى في الأمور العادية ضرورية لنفع المؤمنين في الحفاظ على إيمانهم: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فكيف بمن يحتاجون إلى البلاغ بأصل الدين كله قبل هذا التذكير؟!

إن من بيان الحق الذي أخذ الله العهد والميثاق من الأنبياء عليه كي يقتدي بهم أتباعهم أن نتحدث إلى أنفسنا وإليك بصوت أكثر جهورية ومصارحة بما نعلمه من الحق المبين عما يجول في صدورنا؛ ليتذكر البصير منا أنه على بصيرة من أمره، فيحمد الله على نعمة الإيمان واليقين، ويحافظ عليها بالطاعات والعبادات حتى يلقى خالقه، وليأخذ بيد من لديه قلق أو وحشة، فيطمئنه، ويؤانسه كي يحسن الظن بربه الرحمن، ويحزم أمره واثقًا بالله سالكًا طريق النجاة مسارعًا إلى المخرج الآمن الوحيد الذي يزيل عنه هذه الكآبة والوحشة بالدنيا، ويستبدل بها حياة سعيدة أبدية في الدنيا والآخرة، وليستيقن من في صدره شيء من هذا أن مآله إلى أمان مطلق، وطمأنينة لا تخطر ببال أحد، وذلك عندما يصل إلى غاية وجوده بدخوله الجنة، فينتهي كل قلق وخوف، وحينها سيحمد صبره وجهاده على الإيمان بالغيب في الدنيا القصيرة، وهو يجني ثمرة ذلك بالجزاء الأوفى في الحياة الأبدية، فينطق بها صريحة وما أحلاها من لحظة حين نقول في الجنة، ونحن ننظر إلى الوراء في عالم الدنيا، فنتذكرها، ونتذكر خوفنا فيها من سوء المآل: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِيٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الطور: ٢٦ـ٢٨].

*****

الوقفة الثالثة: رجال الدين والأزمة

الوحي يخاطب الناس كافة بلغتهم الميسرة، ولكن يبقى رجال الدين هم المعنيين ببيان تفاصيل نصوصه، والمأمورين بأن ييسروا، ولا يعسروا، وأن يبشروا، ولا ينفروا، وتكمن خطورة رجل الدين في أثره القوي على تشكل المفاهيم الدينية والتصورات عن الوجود، حيث إن الناس تنظر إلى رجل الدين من منظار الثقة والاحترام لما يدعو إليه من خطاب مقدس متصل بالخالق، يُعدّ بشكل أو بآخر هو الناطق باسم الوحي بعد الرسل والأنبياء، ولا يكاد يسلم دين سماوي من التشويه من قبل حفنة من البشر الذين يصنفون بأنهم رجال دين، يقفز بعضهم على مفاصله الحساسة، فيشلّون أركانه، ويحرمون الناس خيراته وخيريته، ويتصرف بعضهم، وكأنهم يملكون حق (الامتياز)

على النص الشرعي للتصرف المطلق وفرض فهمه القاصر على عقول الآخرين بعد أن منحهم الله فرصة المساهمة بفهم النص الميسر أصلًا.

لقد قدم بعض القساوسة والأحبار والرهبان لأتباعهم دينًا (باسم الله)، تسلطوا فيه مع الإقطاعيين على رقاب الناس وأموالهم وحرياتهم، وحرموهم حقوقهم في الحياة الدنيا ليستحوذ عليها القسيسون والكرادلة والإقطاعيون، على أن هذا التصرف منهم نابع من تعاليم الدين الحق ورسالة الرب، ولم يتوقف هذا التشويه عند مهازل صكوك الغفران والتعميد والتطهير وغيرها من الخرافات المنسوبة للرب، بل تجاوزه إلى تقديم الإله للناس بالصورة الغريبة التي جاءت في بعض الأناجيل المحرفة، والتي تصادم الفطرة السليمة، وهذا ما جعل أوروبا تثور على الموروث الروحي الديني الكنسي كله في القرون الوسطى، وترفضه جملةً وتفصيلًا، وتلوذ بالعلمنة مخرجًا ومنقذًا لها من عالم الخرافة والأباطيل التي لا يلام العقل في رفضها.

حقيقة تقتضي الأمانة التاريخة الإشارة إليها، وهي أنه لم تكن ثمة علاقة بين أصل التوراة والإنجيل بما فيهما من نور وهدًى للناس، وبين ما كان يمارسه رجال الدين من ضلال واستغلال ليس في عالم المعتقدات والمعاملات فحسب بل باسم الرب مباشرة، ما استوجب على الأسوياء والعقلاء والنبلاء كراهية ذلك الدين المزعزم والنفور منه ومن رجاله ومن كل سلطة تستغله وتحميه، والترحيب من جهة أخرى بكل متمرد عليه بلا حدود ولا قيود، إنه ذلك الغش الذي مارسه رجال الدين حتى دفعوا فيلسوفًا مشهورًا مثل (برتراند رسل)[1] أن يكشف سبب توجهاته المناهضة لذلك الدين والإلحاد به، وأن من أهم تلك الأسباب خلو النسخ الإنجيلية من أي كلمة تدعو إلى البحث والتفكير العلمي، ولا يخفى أن رفض العلم والتنكيل بالعلماء جاء من رجال الدين في العصور الوسطى، وليس من الدين نفسه، وذلك قبل أن يتحرر العلم من قبضتهم، فينعم الإنسان بهذه التقنية.

---

(١) برتراند رسل Bertrand Russell (١٨٧٢- ١٩٧٠م) الموافق (١٢٨٩- ١٣٩٠هـ) فيلسوف إنجليزي من أشهر رواد المنطق الرياضي له كتابات سياسية واجتماعية مثيرة ومخالفة للمألوف لكنها عميقة وأصيلة وله مساهمات في المنطق الرياضي: (موسوعة الفلسفة، بدوي، الجزء الأول، ص٥١٧).

ولم تكن ساحة المسلمين خالية من هذا التشويه النسبي، وإن كان قد حدث في الأوساط الإسلامية بدرجة أقل بكثير عما حدث في الغرب؛ نظرًا لوجود القرآن المحفوظ بيننا، هذا الطود العظيم الذي لا يسع أحد القفز فوقه، والذي كان العهد النبوي ترجمة له (كان خلقه القرآن)[1]، وبعد العهد النبوي جاءت الخلافة الراشدة على منهاج النبوة صافية المنبع مثالية التطبيق، عادلة الحكم، حافظة للحقوق، مقدرة لأهل الفضل فضلهم، قائمة بإيمانها على أساس الفكر الفطري السليم الذي لم يختلط به منطق العجم ولا فلسفة اليونان، حتى قدّم المسلمون الدين الإسلامي للعالم بوصفه مشروع حضارة متميزًا اكتسح عالمهم حينها، وذابت فيه مملكتا فارس والروم خلال سنوات معدودة.

ثم حدث بعد الخلافة الراشدة بداية خلل على المستويات السياسية والاجتماعية والاقتصادية جعلت المتأخرين يفهمون، وكأن رسالة السماء إنما تدعو إلى قبول تلك الأخطاء والتجاوزات التي تمارس باسم الدين، ثم تفاقم الأمر بعد ذلك مع مرور الزمن حتى أصبح الحال وكأن الناس أمام إسلام (دعائي) و(انتقائي) و(إقصائي)، بينما جانبه المثالي يستحيل تطبيقه فكرًا وسلوكًا، بل يتراءى لهم وكأن الإسلام العظيم مجرد أداة من أدوات مصادرة الحريات، تركع به الشعوب باسم الله، وتصادر به الحقوق باسم الدين، على نحو يقترب مما حدث في أوروبا في القرون الوسطى، فنشأت أجيال إسلامية أيضًا بدورها تواقة للحضارة والعزة، تنفر من هذه التوجهات الدينية الإسلامية الرسمية، لكنهم يختلفون عن أهل الكتاب بأنهم يرون عن قرب شاطئ الأمان والسلامة، وذلك بوجود أعظم وأثمن وأرقى شيء في وجودنا كله، وهو هذا القرآن العظيم الذي يكفي أن يوصف بأنه كلام الخالق الجبار الواحد القهار، قرآن تراه بين يديك اليوم محكم محفوظ بحفظ الله له من التحريف الذي طرأ على الكتب السابقة، وكذلك وجود الإسلام دينًا متجذرًا في حياة المسلمين مقارنة بغيرهم من أهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد، فقست قلوبهم، تلك القسوة التي حذر القرآن المسلمين منها

---

(١) الحديث رواه أحمد (٦/ ٩١) عنْ سَعْدِ بْنِ هِشَامِ بْنِ عَامِرٍ. قَالَ: أَتَيْتُ عَائِشَةَ فَقُلْتُ: يَا أم الْمُؤْمِنِيَن أَخْبِرِينِي بِخُلُقِ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَتْ: «**كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْانَ، أَمَا تَقْرَأُ الْقُرْآنَ قَوْلَ اللهِ ﷻ**: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾» [القلم: ٤].

قبل وقوعها، وذكرهم بحال أهل الكتاب لكي يتجنبوا خطأهم: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ [الحديد: ١٦].

كل ما يتعارض من نص الدين الصريح الصحيح يجب على الأمة التصدي له بكل عزم وحزم، ولا بد أن نبدأ بأنفسنا أولًا، فنبدأ بتصحيح هذه المفاهيم الخاطئة الدخيلة على الدين، بحيث لا نأمر الناس بالبر، وننسى أنفسنا، وألا نقول ما لا نفعل باسم الدين، وأن تكون أنت أيها الإنسان، مهما بلغت من العلم والدراية مستعدًّا للوقوف عند حدّك المعرفي، فالدين السماوي ليس أهواء أو غرائز أو شهوات لأقلية انتهازية تفرضها باسم الله على الأغلبية، بل الدين حكم إلهي رباني عظيم لا يمكن أن يأتي ناقصًا أو قاصرًا أو ظالمًا كنظريات البشر المجربة والمعدلة من حين لآخر، الدين الرباني له علامات راقية تتناغم بقوة مع التطلعات الإنسانية العادلة تجده حيث يوجد العدل والقسط والكرامة والحقوق والأمان والإنصاف والاحترام والتضحية والحقوق العامة والشورى والحريات المنضبطة بالمصالح العامة والسلمية والطمأنينة وغيرها، إن غياب مثل هذه المعاني السامية من أي مشروع مهما أضفى عليه أتباعه من القداسة تكفي دليلًا قاطعًا على أنه ليس من عند الله، وإن زعم من زعم أنه من عند الله، فالله لا يظلم الناس شيئًا، ولا يأمر بالفحشاء، ولا يهدي كيد الخائنين، بل إن الله سبحانه: ﴿يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل: ٩٠] ويأمر بأداء الأمانة والحكم بالقسط: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨].

*****

الوقفة الرابعة: جمود العَالِم وصدود المُتعلّم

الوحي نور عظيم من الخالق ﷻ يفوق مقامه مقام البشر جميعًا، ولم يستحق العلماء أن يوصفوا بالعلم إلا لأنهم يحملون مشكاته بعد الأنبياء، فيبيّنون الحق كل الحق للناس،

ولا يكتمونه لأي سبب كان، ومما لا شك فيه أن أثر علماء الدين على الشعوب المتدينة جوهري جدًّا، وأن العالِم ما هو إلا ناقل أمين، ومفسر رصين لما نزل به الروح الأمين من رب العالمين، وليس له حق الإضافة والتشريع ولا قصر المعاني الواسعة على سقف عقله ومجال تفكيره الضيق، ولا أضل من جاهل يتصدر وهو لا يعلم، أوعالم يعلم فيكتم علمه عن الناس، وفي الإسلام تحديدًا صور حضارية جميلة لا يحدها الزمان ولا المكان، سواء عن تعامل المسلمين فيما بينهم، أو علاقتهم مع من سواهم من الأمم الأخرى، وإنه لمن الغش والتضليل كتمان هذه المعالم الحضارية المشرقة من الدين، فيتوهم البسطاء جفاء الدين وجفافه في حفظ حقوق الناس عامة، وأن ما ليس من الدين في شيء مما يتعارض مع صريح النص هو الدين، وكذلك حرمان الناس من هامش المباحات تحت ذريعة المبالغة في قاعدة سد باب الذرائع وأخذ الحذر والحيطة تلو الحيطة مما لا يشترط الحذر منه بحكم الله قبل حكم الناس، بينما يدرك من لديه أدنى درجة من العقل أن مثل هذا الموقف من بعض العلماء ليس فقط مخالفًا للدين الصحيح فحسب، بل يصل أحيانًا إلى نقيضه تمامًا بتجريده من جوهره الحضاري التعايشي العادل، وقد يصل إلى مرحلة الصد عن سبيل الله، وهو ما زجر الله أهل الكتاب عنه، ووبّخهم على سلوكهم الذي وصفه بأنه صد عن الحق، حتى وإن كانوا يشهدون بأنه هو الحق: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ٩٩].

من أجل ذلك كان اللوم والمحاسبة، بل الوعيد الأشد للمقصرين من الرهبان والقساوسة والعلماء في كل زمان، لارتكابهم هذه الجريمة النكراء في حق الناس؛ لأن قدرهم الذي يؤجرون عليه أصلًا هو ألا يأخذوا جانب الحياد والصمت أبدًا، بل عليهم أن يبينوا للناس الحق كل الحق دون تردد، ويتحملوا تبعاته: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٨٧] وأن يكونوا بذلك قدوة للناس في خشيتهم لله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨] وفي تحملهم للأذى في سبيله: ﴿يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧] وبذلك يستحقون حقوقهم على الناس بالتقدير لتأديتهم حقوق الناس عليهم بالبيان.

إنها دعوة حق أن يتكلم الناس عن ضرورة تجديد الخطاب الديني التقليدي في إطار المتغيرات المرنة دون المساس بالثوابت القطعية، وضرورة البحث عن لغة مفهومة تناسب المرحلة، وتروي تعطش القلوب الباحثة عن الحقيقة مع تقدم الأمم وتجدد الحضارات، يجب الترحيب بمثل هذه الدعوات دون أدنى حرج قد يشعر به بعض العلماء، عندما تطرح ضرورة تجديد الخطاب وتكييفه بما يتناسب مع لغة العصر دون مساس بالثوابت التي لا اجتهاد فيها، فنحن أمام مواقف ومستجدات فكرية صعبة جدًّا، توجب على الدعاة والمصلحين أن يكون دعاة مخلصين حقًّا، ما يعني تطوير خطابهم بتجردٍ كامل على ضوء نصوص الشريعة، فالدعوة إلى الله أسمى من أن تكون مجرد هذيان لمكتوب، أو نقلًا حرفيًّا لغير معقول دون أن نعقله، هذه القلوب الصافية فطريًّا المتعطشة إلى يقين الإيمان تحتاج إلى من يقف معها دائمًا، ويرشدها نحو طريق النجاة بكل صدق ووضوح وشفافية كي تطمئن قلوبهم، وتأنس نفوسهم للدين الحق، وإنه من الغش المبين أن يكتفي الواعظ التقليدي بتقديم المهدئات الزائفة لجروحٍ فكرية غائرة، ويسرد المواعظ السطحية لعلاج أزماتٍ فكرية مستعصية، تحتاج في بعض الأحيان إلى استئصال تام، من خلال سحق ظلام الجهل فيها وإحلال النور محلها، فليس حلًّا أن نزجر الإنسان الطبيعي بتفكيره، ونجرده من عقله الذي ميزه الله به عن الحيوان إذا ما فكر وتأمل وتدبر وفق ما يأمر به الوحي المنزل، ثم صادف إشكالات تثار حوله ليل نهار، وتحتاج منا إلى مد يد العون له ومناولته طوق النجاة، ولئن قدر الواعظ على إسكات لسان السائل مخادعة، فلن يملك إسكات القلب النابض والفكر المتدفق والعقل الباطني المتفاعل بقوة مع الأحداث والمتغيرات التي تعصف به في كل اتجاه بلا رحمة ولا شفقة.

هذا ما يجب أن نصارح بعضنا فيه، مع حفظ المقامات لكل القامات، ولكن لا بد من إعادة ثقة الإنسان بربه بعيدًا عن التقديس الشخصي للناس وعن التكلف المنفر من الدين، عندما يتعمد بعض المحسوبين على الدين صرف معاني النصوص عن ظاهرها تعسفًا، لعلةٍ ما أنزل الله بها من سلطان، محتقرين بذلك عقل المتلقي الصامت الذي قد يدرك بفطرته وانسجامه مع نفسه ومحيطه، ما لا يدركه هذا الواعظ الذي يتعمد اختزال

إنسانية الموعوظ ليضعه في موقع المتلقي فقط الذي يسمع منه ومنه وحده -أحيانًا- وألا يجادل بحثًا عن الحقيقة والبرهان، وإلا فهو بذلك يخالف أمر الرب الرحمن، بينما هو مخاطب مثله بالقرآن الميسر للجميع: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧].

فيا أيها الإنسان، تذكر أنك في هذا الوجود تتبوأ مقامًا تكريميًّا تستحقه وقد وضعك فيه خالقك وحده لا شريك له، لا يزحزحك عن هذه المنزلة عالم ولا حاكم ولا فرد ولا جماعة، فأنت بحكم الله سيد بين سادة حولك، متساوين في الحقوق والواجبات، تتفاوتون في الأعمال والمواهب والقدرات، كل من علم منكم شيئًا أصبح به حجة على من لم يعلم، وكلكم عبيد للخالق وحده، ولئن استطاع المخلوق مزاحمة مخلوق مثله في حياتهم المشتركة، فإنه لا يملك، ولا يقدر على مزاحمة الخالق في ملكه، بل إن إيراد مثل هذه العبارة لا يخلو من سوء أدب مع الخالق العظيم الذي لا ند له ولا شريك ﷻ، وعلى هذا الأساس جاءت التكاليف الشرعية من الخالق للمخلوق، من الأعلى للأدنى، ومن الأقوى للأضعف، ومن الباقي للفاني، تكاليف مباشرة وبقوة آمرة، مع استغناء الخالق تمامًا عن المخلوق، وهو كذلك غني عنه بحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾ [فاطر: ١٥-١٧].

خطاب التكليف موجه لك أنت أيها الفرد، أكثر منه للجماعة، وسيكون لك أو عليك الحساب وحدك على فروض الأعيان قبل فروض الكفاية، تذكر أنه لن يصحبك هذا العالم أو ذاك، سواء كان جامدًا أم منفتحًا، لا في قبرك ولا في محشرك بعده، ومن هنا يتضح لك أنه لا مناص، ولا مخرج، ولا مهرب من أن تؤمن حق الإيمان بالخالق، وأن تثق بربك الرحمن، ثم تؤمن بهذا الدين الذي جاء به خير البشر شفاءً ومنقذًا لك من بحور التيه والشك والظلام، ولم يأتِ ليزيدك حيرة وشقاء وبلبلة، ثقْ بالله ثم بالمخلصين من عقلاء الأمة الذين يتفقون معك تدينًا بأنه ليس عدلًا ولا عقلًا ولا شرعًا أن يجعل الناس منك وحدك ضحية للأزمة الأزلية، فيحاصرونك فكريًّا حتى يشعروك في النهاية وكأنك أنت وحدك ملتقى الشر والنزوات والأهواء والانحراف والشكوك والإنكار

والضلال، أما من حولك من البشر فما هم إلا (ملائكة) أبرار أطهار، لا يجدون شيئًا مما تجد، فتضطر بذلك إلى إفناء عمرك محاصرًا بهذه الوحشة المخيفة، مدافعًا عن خطيئة وهمية لا وجود لها إلا في عقولهم المتحجرة، لكنهم يضطرونك بسببها إلى البراءة أحيانًا مما فعلت، ومما لم تفعل تلمسًا لرضاهم، وليس لرضا الخالق، ولو فكرت مليًّا لأدركت أنهم يتكلمون باسم الرب، والرب الرحيم سبحانه لم يخلقك كي تعيش بهذا الرعب القاتل، حتى لو وقعت بأكبر موبقة، فالتوبة بحق الله فقط مع الاستغفار المريح كافية شافية لردّك إلى أفضل مما كنت عليه.

*****

الوقفة الخامسة: العبادة للخالق وليست للخلق

الخطأ في حق الخالق تمحوه التوبة الصادقة وحدها؛ لأنه غني عن خلقه، والخطأ في حق المخلوق يؤخذ بالرد أو بالمقاضاة العادلة أو بالتنازل المغلف بالمنّة أحيانًا، وحق الخالق مبني على المسامحة، وحق المخلوق مبني على المشاحّة، ولا يخلط بين الحقين، ونحن جميعًا خطاؤون مقصرون في حق الله تعالى، وخير الخطائين التوابون، لكن عليك أن تحذر كل الحذر ألا تقدم التوبة في تقصيرك بحق الله إلى غير من أمرك بالتوبة إليه، ولا حاجة لك بالوسطاء، ولا أن تلتمس القربى والتوبة المصطنعة إلى (الأوصياء) عليك من المخلوقين، لمجرد إحساسك بقسوتهم وشدة وطأتهم عليك تجاوزًا منهم دونما حق لهم بذلك، ولا داعي لهذا الاقتناع الوهمي وتحمل الأحمال الثقال مجاملة للفرد أو مداراة للعقل الجمعي[1]، على حساب راحتك وسعادتك، حتى أصبح الفرد يداري بعقله متصنعًا لإرضاء العقل الجمعي الخادع، بأكثر من قيامه بالواجب في حق الله عليه، والله تعالى هو الرحمن الرحيم العليم بحال المرء، والأمر يرجع إليه سبحانه، وليس إلى هؤلاء المخلوقين القساة عليك باسم الله الذي هو وحده أحق أن نخشاه، ونرجوه، ونتوب إليه!

(١) العقل الجمعي: مصطلح يطلق على الظاهرة النفسية التي يفهم منها أن تصرفات الجماهير تعني الصحيح خاصة في القضايا الغامضة فيتوهم الفرد أن الآخرين يفهمون أكثر منه فيستسلم لانطباعاتهم الوهمية وفيه تقتنع الغالبية من الناس بأن تصرفات الجماعة في حالة معينة تعكس سلوكًا صحيحًا مهما كان موافقًا أو مخالفًا للمعايير الصحيحة علميًّا.

علاقتك هنا مع الخالق الجبار علاقة لا نظير لها في الوجود، إنها أيسر وآمن وأهدأ وأنفع وأبقى علاقة على الإطلاق، ومن مميزات هذه العلاقة أنها لم تحرمك حقك المشروع بسؤال أهل الذكر في كل أمر يحيرك مهما أرجف حولك المرجفون لحرمانك منه، فإما أن تبين لك الأمة عن طريق علمائها ما التبس عليك، وهذا هو الواجب عليها، وإلا فسيكون الموقف منهم صدًّا لك ولغيرك عن سبيل الله بغير علم ولا هدى، وأنت لن يضيّع الله الرؤوف الرحيم إيمانك، فالحق بيّن لا لبس فيه ولا غموض، وليس في معتقداتنا شيء نشكّ في مصداقيته، ولا ما يُستحى من مناقشته بكل ثقة، تتجلى شجاعتك في صمودك مع ذاتك، عندما يحيط بك بعض ذوي النيات الحسنة مستنكرين عليك مبدأ السؤال، ولا ذنب لك سوى أنك عاقل تفعّل عقلك، كما يفعل العقلاء، وتتساءل علانية عما حولك، متأدبًا مع الله الذي يعلم ما في نفسك قبل نطقك به، ومع من يقفون أمامك وكأنهم يحاكمونك جنائيًّا، مرتدين لباس التقوى والورع، متحصنين بالشرع ونصوصه التي تهابها، فما تملك إلا التوقف والصمت والامتثال حبًّا للدين واحترامًا لحامله.

لكن الإشكالية تكمن في خطورة آثار هذا الصمت الذي يحدث منك أحيانًا مع كبت ما في نفسك خوفًا وحيطة؛ لأنك تحمل الخيرية الإيمانية داخل نفسك، فتضحي بحقك المباح في المعرفة من أجل الحفاظ عليها متماسكة، حتى إذا ما رماك القوم بسهم قاتل من الانتقاد والاستنكار والإنكار، يغشاك رعب من الموقف فوق رعبك الأول المحير لك داخليًّا، وتشعر في النهاية وكأنك وحدك النقطة السوداء في الكون الأبيض، سواء تحدثت أم صمتّ، بينما لو أدركت حقيقة من حولك، وما يحمله أغلب القوم تجاه ما خطّؤوك من أجله، لربما خررت لله ساجدًا أن فضلك عليهم بالإيمان الأقوى بغض النظر عما يقولون لك، وما يتظاهرون به أمامك، فالعبرة بما في سويداء القلوب من اقتناع ويقين وإيمان وليس فيما هو ظاهر من شعارات وادعاءات؛ لأن المؤمنين في النهاية هم فقط المطمئنون الذين لا ينتابهم ريبة ولا شك، وهم الصادقون مع ذواتهم وأنفسهم، كما وصفهم القرآن: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات: ١٥].

*****

الوقفة السادسة: المثاليات الصادمة للواقعية

ما أكثر الصور المثالية المضللة التي لا جود لها إلا في ذاكرة العقل الجمعي، ولا وجود لها في عالم الواقع، وهذه الحياة «**ساعة وساعة**» كما قال ذلك أكمل الناس إيمانًا عندما شكى إليه الصحابة اختلاف حالهم إذا انصرفوا من عنده، فقال لهم: «**والذي نفسي بيده! إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذكر، لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم**»[1]، والمبالغة في المثاليات أوهام مزعجة ومؤثرة في ثقة المرء بنفسه، فقد تصل إلى إيهامك -أخي الكريم- بأنك آفة الكون لقصرك عن عالم المثال، وأنك أنت المخالف الوحيد، والخطأ الأول في الوجود، والغارق بالشك والضلال، وفي جانبها الآخر تعكس وهمًا آخر، بحيث يتراءى لك أن كل من حولك هم أمثال الملائكة الأبرار، وأن هذا الوجود كله خير لولاك أنت وعقلك المزعج وأسئلتك الفوضوية، وكل الوجود إيمان نقي لولا شكوكك، وكله حسنات لولا سيئاتك، هكذا، حتى يصل الأمر ببعضهم إلى التكلف الزائد في تفسير بعض الآيات تفسيرًا سلوكيًّا غريبًا يدعم هذا الموقف الجائر بحق الإنسان العادي -على سبيل المثال- يقف بعض المفسرين تكلفًا عند قول الله تعالى عن النبي يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز: ﴿**وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا**﴾ [يوسف:٢٤]. فيقول: لقد همّت به للفاحشة، وهمّ بها للإنكار والاعتراض! دون أن يكلفوا أنفسهم بتوضيح معنى الاستثناء الاستداركي في الآية: ﴿**لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ**﴾ [يوسف: ٢٤] مع التسليم بأنه لم يترتب على الموقف شيء من الفواحش التي

---

(١) الحديث رقم (٢٧٥٠) من صحيح مسلم عن حنظلة بن حذيم الأسدي التميمي قال: لقيني أبوبكر فقال: كيف أنت يا حنظلة؟ قال: قلت: نافق حنظلة قال: سبحان الله! ما تقول؟ قال: قلت: نكون عند رسول الله ﷺ يذكرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين فإذا خرجنا من عند رسول الله ﷺ عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات فنسينا كثيرًا قال أبوبكر: فوالله! إنا لنلقى مثل هذا فانطلقت أنا وأبوبكر حتى دخلنا على رسول الله ﷺ قلت: نافق حنظلة يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: وما ذاك؟ قلت: يا رسول الله نكون عندك تذكرنا بالنار والجنة حتى كأنّا رأي عين فإذا خرجنا من عندك عافسنا الأزواج والأولاد والضيعات نسينا كثيرًا فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده! إن لو تدومون على ما تكونون عندي وفي الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفي طرقكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة**» ثلاث مرات.

لا تليق بمقام الأنبياء المصطفين، وأن الله قد صرف عنه السوء والفحشاء، ولكنها كانت لحظة بشرية قصيرة جدًّا صرف الله سوءها عن النبي يوسف عليه السلام؛ لأنه نبي يربى ليكون له شأنه السامي فيما بعد، لكن هؤلاء بتكلفهم المبالغ فيه لإظهار القداسة والنزاهة مضخمة فوق ما تحتمل المواقف والألفاظ والمعاني، يجعلون الإنسان المذنب بطبعه يشعر بأنه هو الذي يعاني فقط دون غيره، ومن ثم ييأس من حاله، ويتصيده الشيطان في أجواء الإحباط هذه، فيزداد الأمر تفاقمًا، ولربما تطور الموقف ليصل إلى حد الضلال، بل ربما يتمادى، فيوسوس بكل شيء في الدنيا والآخرة.

إنهم يجعلون من مثل هذه الصورة المثالية الوهمية مدخلًا خطيرًا من مداخل الغواية، بأن يصنف الإنسان نفسه بالعاصي، فتفتر عنده همم الطاعات؛ لأنه يرى نفسه خارج النطاق المقبول، وأن أمل النجاة وخط الرجوع للصلاح قد انقطع، وأن البوصلة قد فقدت تمامًا، لا والله، ثم لا والله، سبحانك هذا بهتان عظيم، الأمر يا عباد الرحمن، ألطف وأرحم من هذا بكثير، ورحمة الرحمن واسعة جدًّا، بل كل كبير ما هو إلا صغير في سعة رحمة الله، وباب التوبة والاستغفار والرجوع مفتوح على مصراعيه عن كل شيء مهما كبر، وتكرر وتعاظم، وكيف يغلق وهو رحمة من رب العالمين الرحمن الذي وسعت رحمته كل شيء أبد الآبدين، وليس كل عالم يصوم النهار، ويقوم الليل، ويتلو كتاب الله آناء الليل وأطراف النهار، ويجاهد في الله حق جهاده، فالناس مستورون بستر الله لهم، ولا يحتاج الأمر إلى جهد وإلى كبير عناء، فقط يتطلب الإخلاص والإنابة لله وحده والتوجه إليه بلحظات صادقة، دون أي اعتبار لتلك العقبات الوهمية، ولا التصورات المثالية الزائفة المهلكة المنفرة من الدين، إنه لا مكان لأي وسواس أو شك أو يأس أو قنوط مطلقًا، ونحن أمام أعظم عرض وأكرمه، وأرجى خطاب وأرحمه، لكل مذنب خطّاء مهما كان إسرافه على نفسه، استمع إلى نداء البرّ الرحيم الودود، حين يقول لنبيه الكريم: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

وهناك تصورات مثالية في الاعتقاد أيضًا لا تقل خطرًا عن المثاليات السلوكية، عندما يقف (عالم) فوق منصة اليقين، فيشعرك بأنك وحدك الغارق بالوسواس، عندما

تتساءل مستفسرًا عن تفسير سؤال إبراهيم عليه السلام لربه عن كيفية إحياء الموتى، فيسكتك زاجرًا بتذكيرك بقول النبي ﷺ: «**نحن أحق بالشك من إبراهيم**»[1]، دون أن يدرك هو الآخر أن إبراهيم عليه السلام حينها ولو لم يكن عنده شك أصلًا إلا أنه كان محتاجًا، بل في أمسّ الحاجة إلى ما ذكره الله: ﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾، [البقرة:٢٦٠] والحديث الشريف ينفي الشك عن النبي ﷺ والمؤمنين، فبإيمانهم ينتفي كل الشك عنهم، فكيف يرد الشك في حق إبي الأنبياء وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، ولو كان ثمة شك لحدث مع غيره، ولكن الشك شيء، والطمأنينة شيء آخر، كان أبو الأنبياء (متحصنًا) بإيمانه عن كل شك، وكيف يرد التفكير بوجود شك عند نبي بادر لذبح ابنه وفلذة كبده لمجرد (رؤيا) رآها وحيًا من الله، ولكنه (محتاج) إلى طمأنة القلب بسؤاله الصريح الواضح (كيف) يحيي الله الموتى؟ وهو الذي اصطفاه الله، ورفع ذكره في الأولين والآخرين، واتخذه الله خليلًا، وأوحى إليه، ووصفه بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] فمتى تدرك أيها العالم أو المتعالم أو المفسر أو الشيخ أو الواعظ أو المرء أيًّا كنت، ضرر حرمان أخيك البريء المتعطش لحب ربه من هذه النعمة اليقينية لكي يستريح في دنياه، ويعمر آخرته بأمان؟ ألا يستحق أخوك المتسائل أن يطمئن قلبه الضعيف، كما اطمئن قلب أبينا إبراهيم القوي؟ ثم ما يدريك أيها الواعظ، ربما تكون أنت أحوج من غيرك إلى ما تتظاهر أنك تنكره على غيرك؟! وأي شيء تخشاه من تبيان الحق وأنت تدرك يقينًا أننا لن نتجاوز معشر البشر قدراتنا المحددة أصلًا من قبل الخالق سبحانه، إننا يا عزيزي، جميعًا فقراء إلى الله في كل شيء، متعطشون لهدايته وفضله في حياتنا ومماتنا وبعثنا ونشورنا.

هذه بعض الوقفات المفصلية في تشخيص الأزمة، وهذا هو الأساس الذي يجب أن ننطلق منه لتوضيح أسبابها في كيفية نظرة الناس إلى خالقهم وثقتهم بوحيه ورسله ورسالاته، فمن الأهمية بمكان أن تدرك -أخي الكريم- أنه لا سبيل إلى النجاة إلا

---

(١) الحديث رقم (٣٣٧٢) من صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**نحنُ أحقُّ بالشكِّ من إبراهيمَ**» إذ قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] «**ويرحمُ اللهُ لوطًا لقد كان يأوي إلى ركنٍ شديدٍ ولو لبثتُ في السجنِ طولَ ما لبثَ يوسفُ لأجبتُ الداعي**».

بمواجهة هذه الحقائق ومعالجتها بكل شفافية، وأنه لا سبيل لمعرفة الغيب إلا من خبر من يعلم الغيب، وهو الوحي، وأن تبليغ هذا الوحي يجب أن يقوم به علماء عاملون مخلصون يتصدرون الساحة، فيجد عندهم كل متعطش للحقيقة ما يروي ظمأه، ويشفي غليله، وأنه يستحيل رسوخ الإيمان بالوحي قبل استقرار الإيمان بالذي أنزل الوحي، وهو الخالق العظيم ﷻ، وأن الفرق بين الوحي المنزل من الله وأخذ الناس به كبير جدًّا، يفرض على كل منصف ألا يخلط بينهما، فالذي يحول بينك وبين الحقيقة ليس النص الديني الجميل الذي يحتضنك بكل رأفة ورحمة وشفقة، ويحميك من كل شر وقلق، بل العقبة سوء فهم الناس له والاجتهادات الخاطئة من بعض القائمين عليه واعتبار عامة الناس بعض تصرفات القائمين على الدين جزءًا منه، فتصبح للعالم حصانته وقداسته المزيفة التي قد تطغى على قداسة الدين المشروعة، ولو رجع الإنسان إلى الدين من مصدره ومنبعه الصحيح، ولو بالاستعانة بالراسخين في العلم الصادقين الأمناء، لوجد الأمر مختلفًا تمامًا، وأنه أيسر بكثير مما تعسر، وأقرب مما بَعُد، إنه كما جاء وصف الرسول ﷺ له في هذا الحديث العظيم: «**إِنَّ الدِّينَ يُسْرٌ، وَلَنْ يُشَادَّ الدِّينَ أَحَدٌ إِلاَّ غَلَبَهُ، فَسَدِّدُوا وَقَارِبُوا وَأَبْشِرُوا، وَاسْتَعِينُوا بِالْغَدْوَةِ وَالرَّوْحَةِ وَشَيْءٍ مِنَ الدُّلْجَةِ**»[1].

*****

(١) الحديث رواه البخاري (٣٩) ومسلم (٢٨١٦) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ.